الذاكرة والتذكر... وفقدان الذاكرة

تعتبر عملية التذكر عند الإنسان من أهم الوظائف العقلية وأرقاها، ومن البديهى أن للذاكرة صلة وثيقة بالذكاء والعقل، ويقول الكثير من الباحثين إن التذكر عامل مشترك فى كافة العمليات العقلية. وتختلف عملية التذكر فى كمها وكيفها طبقا لنوع الموضوع الذى يعالجه الفرد وما يصاحب ذلك من انفعالات.

ويمكن القول بأن التذكر والتصور والاسترجاع وتداعى المعانى والتخيل وإدراك العلاقات كلها أوجه متقاربة لبلورة واحدة هى العقل الواعى.

وقد عرف بعض علماء النفس الذاكرة بأنها القابلية للتغير والتكيف وحفظ الآثار، ولكن كيف تتم عملية التذكر؟ وأين تكمن المعلومات والصور والانطباعات؟

ومن الخصائص البارزة التى يمتاز بها الإنسان خاصة التذكر، غير أن التعليل الفسيولوجى لظاهرة التذكر أمر عسير للغاية.

ولا يوجد فرق جوهرى بين العادة والذاكرة، غير أن العادة تطلق اصطلاحا على اكتساب المهارات الحركية والقدرة على استخدامها بطريقة شعورية ـ كما أنه يمكن أيضا أن تتم الحركات المتعلقة بالعادة لا شعوريا ـ وتوجد بلا شك درجات متوسطة بين التعود الحركى الآلى وبين التحصيل الإرادى المقصود.

ويمكن القول بأن الفرق بين جميع هذه الدرجات هو من جهة: بعد العملية عن بؤرة الشعور أو قربها منها. ومن جهة أخرى ما تمتاز به العملية من آلية أو إرادة.

ولا يقتصر التعود (الاعتياد) على مظاهر السلوك، بل يشتمل أيضا بعض المظاهر البيولوجية. وإذا أردنا الوقوف على التغييرات الفسيولوجية المصاحبة للتعدد البيولوجى وجدناها معقدة جداً ـ ووجدنا علماء هذا الفرع ـ يلجئون إلى شتى الفروض لتعليل هذه التغييرات. وقد يزداد مدى التعقد إذا نظرنا فى مظاهر التعود السيكلوجى ـ كما تبدو أثناء عمليات التصور الذهنى والتذكر.

وعلى ذلك يمكننا القول بأن الذاكرة مثل العادة ـ ظاهرة سيكلوجية يجب دراستها بالاعتماد على السلوك الظاهر وعلى تحليل الحالات الشعورية.

ولا يمكننا أن نلفظ نظرية التعود الفيزيائى ـ وهو ما يمكن تشبيهه فى المغناطيسية بالاستبقاء المغناطيسى، غير أنه لا يمكن أن يقال إن

آثار التعلم تسجل فى الجهاز العصبى، كما تسجل الذبذبات الصوتية على أسطوانة أو على شريط تسجيل.

وإذا أردنا أن نصطنع لفظ التسجيل تجاوزًا كان لابد من فهمه على أنه فى الحقيقة تكيّف جديد يحدث بين الوظائف التى تقوم بها مناطق واسعة فى الجهاز العصبى.

ويقول وليم جيمس بصدد ثبات العادة فى التعلم:

«إننا نتعلم السباحة شتاءً والتزحلق على الجليد صيفا»... ويقصد من وراء ذلك أن الذاكرة بحاجة إلى بعض الوقت لترسب المعلومات.

وتختلف قدرات الناس على التذكر، بل إنها تختلف لدى الشخص نفسه نحو مختلف الموضوعات. فمن الناس من يمتاز بالقدرة على تذكر الأرقام، ومنهم من يمتاز بالقدرة على تذكر الصور، ومنهم من لا يبارى فى تذكر الأشكال أو الألوان أو غيرها...

وقد يكون من المفيد أن نتعرض عند هذا البحث إلى مدى قدرة الحيوان على التذكر، فالقردة لها مقدرة فائقة على التذكر إذا قيست بالحيوانات الأخرى. فكثيرا ما توحى حركاتها وسلوكها بمدى ما تتمتع به من قدرة على التذكر والاستنتاج. كما أن للخيول والكلاب وبعض أنواع من الفصيلة القطية قدرات بارزة على التذكر.

غير أن التجارب قد شهدت بأن التذكر لدى الحيوان يكون دائما مرتبطا بالمصلحة البيولوجية للحيوان، وخاصة عند استشعاره للخطر، وغالبا ما يتضح من خلال السلوك الحركى. (أى أن التذكر غالبا ما يكون مندمجا فى النزوع الحركى)

فارتداد الدودة فى تجربة (يركس .Yarks) عند لمسها ورقة الصنفرة يمكن عده نوعا من التذكر ـ والارتداد هنا لا يمكن اعتباره فعلا منعكسا ـ ولنا أن نحكم على سلوك الدودة عندما غيرت اتجاهها.

وفى حالة الحصان (المربوط داخل الحظيرة) يترقب حضور صاحبه فيتعرف على وقع أقدامه. فيلتفت إلى الخلف ويهز رأسه بطريقة تنم عن الرضا والسرور... فهل كان يفكر فى صاحبه قبل حضوره؟

ويمكن اعتبار حركات الكلب الذى يهش لصاحبه ويتعرف عليه بعد غيابه مدة من الزمن نوعا من التذكر.... ولكن هل يمكن القول بأن الكلب كان يتصور صورة صاحبه فى فترة غيابه؟ وهل تخلو جوانب الاستجابات الغرزية لدى الحيوان من التذكر؟

وفى الحقيقة أنه لا يمكن أن ننكر خلو أية استجابه ولو كانت بيولوجية من التذكر حتى ولو كانت الاستجابة إليها حركية صرفة.

*** فقدان الذاكرة**

كثيرا ما نسمع عن حالات فقدان الذاكرة، وعن أناس فقدوا ذاكرتهم إثر حادث أليم أو صدمة مفاجئة... فماذا يحدث لمثل

هؤلاء الناس؟ وماذا يطرأ على عقولهم وسلوكهم من آثار؟

يحدث أن تتسبب الأحداث المفاجئة ذات الوقع الشديد أو الصدمات العصبية الرهيبة أو الانفجارات المرعبة فى فقدان الذاكرة، وكثيرا ما تحدث هذه الحالة فى ميادين الحرب وبين الانفجارات ووسط ضجيج المعارك، وقد خلفت الحرب العالمية الثانية الكثير من فاقدى الذاكرة.

وفاقد الذاكرة شخص سوى ذو جسم سليم فى كل شىء إلا أن ذاكرته قد أصابها شلل مفاجئ على إثر صدمة أو حادث يترتب عليه حائل فسيولوجى طارئ يحول بين مراكز التذكر فى المخ والمركز العصبى الرئيسى، فيفقد على إثرها الشخص المصاب كل ما يربطه بذكرياته السابقة للصدمة، فيتعذر عليه التعرف على أصدقائه ومعارفه وأفراد أسرته وحتى نفسه، ويفقد كل ذكرياته عن ماضيه.

وقد يمكن تشبيه حالة الذاكرة فى هذا الوضع بحجرة كانت مضاءة، فانقطع عنها التيار الكهربائى فجأةً بسبب خلل فى الأسلاك الموصلة للتيار.

وقد يحدث أن تستمر هذه الحالة دون عودة صاحبها إلى حالته الطبيعية السابقة، كما يمكن أن يشفى صاحب هذه الحالة على أثر صدمة عصبية أو نفسية أخرى، تعيد حالة التذكر العادية إلى وضعها الطبيعى السابق، ولا يلبث المصاب بعدها أن يسترد ذاكرته شيئاً فشيئاً

وكأنه كان فى حلم طويل. . . .وقد يحدث أن تزول حالة فقدان الذاكرة تدريجيا عن صاحبها بمرور الزمن. . ويحكى أن جنديا فقد ذاكرته فى معارك الحرب العالمية الأولى على إثر انفجار لغم فى سيارته التى كان يقودها، وقد ظل نزيلا بالمستشفى عدة أعوام دون أن يدرى من أمر نفسه شيئاً، غير أنه بعد أن أُعيد إلى قريته التى خرج منها منذ سنوات وأخذ يتردد على تلك الأماكن التى كان يرتادها قبل أن يذهب إلى ميدان القتال عاودته ذاكرته رويداً رويداً، واسترد قوة التذكر، وأخذ يتعرف على كل ما حوله من أصدقاء ومعارف، غير أنه لم يذكر ذلك الحادث الذى وقع له فى ميدان القتال.

النسيان وشرود الذهن

النسيان ظاهرة إنسانية طبيعيةكثيرا ما تبدو فى تصرفاتنا اليومية فى صور متباينة، وقد يتعذر علينا تفسير أسبابها.

ولابد للباحث عن بواعث النسيان من أن يتعرض لبواعث التذكر... والتذكر والنسيان ينبعثان من مراكز واحدة فى الدماغ، ويمكن القول بأن التذكر يعبر عن الجانب الإيجابى للنشاط العقلى فى حين يفسر النسيان الجانب السلبى لهذا النشاط.

وإنه من الممكن للمرء أن يتذكر بعض أموره عن طريق شحذ الذاكرة وإعمال الفكر والتركيز، وهو ما يعرف بالتذكر المتعمد أو محاولة الاستدعاء.

أما النسيان فإنه من الممكن أن يحدث بسبب انشغال العقل بأكثر من فكر واحد...، وعندئذ قد يغيب الشيء المراد تذكره تحت ضغط عوامل جديدة تزاحمه.

وكثيرا ما يحدث النسيان فجأةً. . . . فبينما أنت منذ لحظة وجيزة تتذكر جيداً شيئا تريده. . . . إذا بك فجأة قد نسيته تماما فتفتش فى نفسك دون جدوى، فلا تذكر عنه شيئاً ألبتة، وكأن ستاراً سميكا قد أسدل بينك وبينه. . . ثم إذا بك بعد برهة من الوقت تعود مرة أخرى فتتذكر هذا الشيء فجأةً كما نسيته فجأةً.

وقد تنسى الأم طفلها لبعض الوقت فى زحمة أعمالها المنزلية، غير أنها لا تلبث أن تتذكره فجأةً فتجرى مهرولة نحوه فإذا به يغط فى نوم عميق أو يلهو مع لعبه فى هدوء.

وعلى ذلك فإنه كما يمكن أن يحدث التذكر التلقائى ـ وهو ما يمكن أن نسميه (خطور الذكريات فى الذهن)(١) ـ فإنه يمكن كذلك أن يحدث النسيان تلقائيا. ومن هنا يمكن القول بأن التذكر والنسيان عمليتان ديناميكيتان تتوقف نتائجهما على تأثير العوامل النفسية بعضها فى بعض، وقد يتخذ هذا التأثير إما شكل التعاون والتآزر، وإما شكل المناهضة والممانعة.

وقد يحدث النسيان بسبب اكتساب خبرات جديدة فى حياتنا اليومية تؤثر على الخبرات السابقة (القديمة والمكتسبة) فتطغى عليها تلك الخبرات الجديدة، ويعرف هذا فى مذاهب علم النفس باسم (الكف الرجعى).

---

(١) يقال خطر بباله.

كما أنه يمكن أن يحدث النسيان بسبب عدم استخدام الفرد لخبراته السابقة من وقت إلى آخر، وعند ذلك تندرج وتذبل نفسيا فلا يعود يذكرها.

وقد يكون انتقال الفرد من تيار فكرى إلى تيار فكرى آخر أو من أجواء إلى أجواء أخرى مغايرة لها تماما ـ سببا قاهراً لحدوث النسيان. حيث يكون للجو المحيط الراهن صفة الشمول والارتباط.

وعلى سبيل المثال:

فقد تنسى الأم نفسها إذا ما شاهدت طفلها فى خطر محدق به، فتندفع نحوه غير مبالية بما قد يصيبها من أخطار...

وذلك المغامر الذى ضل طريقه وسط الغابة.... لم يعد يذكر شيئاً إلا نفسه أمام تلك الأخطار المحدقة به... فنراه وقد أرهفت حواسه لكل حركة أو تقصف غصن.

ونرى الناس عند حدوث الغارات الجوية أو الزلازل وقد هرعوا إلى الأماكن الأكثر أمنا، وقد نسوا كل شىء إلا النجاة بأنفسهم.

ومن الناس من يكتشف أنه قد نسى أمراً ما بعد فترة وجيزة من الوقت، ومنهم من لا يتبادر إلى ذهنه أمر النسيان على الإطلاق....

وقد لا يوفق الشخص فى الكشف عن بواعث النسيان أو التذكر المفاجئ إلا بعد تحليل طويل، وربما لا يصل به هذا التحليل إلى حكم

يقينى قاطع، وفى هذا اعتراف بجهل ظروف النسيان أو الاسترجاع الخفية.

وهناك نتيجة هامة، وهى أن الذكرى المستعادة لا تكون أبداً صورة مطابقةً للأصل، بل صورة قد تكون متطورة أو متحورة.

ويعتبر فقدان الذاكره (أمنزيا Amnesia - loss of memory) أقصى أنواع درجات النسيان، وقد يعتبره بعض الباحثين مرضا.

وقد يحدث ذلك نتيجة لصدمة نفسية أو عصبية مفاجئة.... فكثيرا ما فقد الجنود (خلال معارك الحرب العالمية الثانية) ذواكرهم، وبذل العديد من المحاولات لإعادة الذاكرة إليهم.

وأحيانا أخرى يكون فقدان الذاكرة نتيجة لتلف أصاب مراكز الأعصاب فى المخ، إما بسبب ضربة مفاجئة أو بسبب الإفراط فى تناول المشروبات الكحولية.

وقد تعتبر الشيخوخة أحد مسببات النسيان، فإن تقدم السن بالإنسان يضعف قواه العقلية، فتختل قدرته على التذكر، ويصاب بما يسمى (نسيان الشيخوخة).

ـ بعض ما ورد عن النسيان فى القرآن الكريم

قال تعالى فى كتابه العزيز

﴿سَنُقْرِئُكَ فلا تنسى * إلا مَا شَاءَ اللَّهُ إنهُ يَعلَم الْجَهْرَ ومَا يَخْفَى﴾(١)

(١) الأعلى الآيتان ٦، ٧

وقال تعالى فى سورة الكهف

﴿قَالَ أَرَأَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّي نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَانِيهُ إِلاَّ ٱلشَّيْطَانُ أَن أَذْكُرَهُ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُ فِي ٱلْبَحْرِ عَجَبًا﴾(١)

وقال تعالى

﴿فَٱنْطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِنَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً * قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً * قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً﴾(٢)

وقال تعالى

﴿قَالَ فَمَن رَّبُّكُمَا يَا مُوسَى * قَالَ رَبُّنَا ٱلَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى * قَالَ فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلأُولَى * قَالَ عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لاَّ يَضِلُّ رَبِّي وَلاَ يَنْسَى﴾(٣)

وقال تعالى فى سورة يوسف

﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَاهُ ٱلشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾(٤)

صدق الله العظيم

---

(١) الكهف: ٦٣

(٢) الكهف: الآيات من ٧١ـ ٧٣

(٣) طه: الآيات من ٤٩ ـ ٥٢

(٤) يوسف: ٤٢

*** الكلل العقلى**

غالبا ما يحدث الكلل العقلى نتيجة للإرهاق الزائد أو نتيجة للقلق واضطراب الفكر أو الشعور بالخيبة، والمرجح أنه يكون نتيجة لأسباب وجدانية أكثر منها عقلية.

ولقد أجريت عدة بحوث حديثة، دلت على أن الإعياء العقلى الحقيقى قلما يحدث، وفى الحالة التى يشكو فيها الإنسان إجهاداً عقليا لا يكون الذى أجهد أو استنفد هو الطاقة بل الميل. ولا يكون الإنسان حينئذ فى حالة إعياء، بل فى حالة ملل.

وكثيرا ما يؤدى الكلل العقلى إلى نوع من شرود الذهن وعدم القدرة على التركيز ومتابعة التفكير والقدرة على التذكر.

وهناك فريق كبير من الناس يعتقدون أنه يجب أن يقف العقل عن عمله فى فترات منظمة يزود فيها من الطاقة زاداً يجدد نشاطه وطاقته. وقد يكون هذا صحيحا على العموم من وجهة النشاط الجسمى، غير أنه غالبا ما تتجدد طاقة الإنسان إذا ما غير مجال تفكيره أو نوع اهتماماته. حتى إذا ما انصرف إلى نوع آخر من الأعمال وجد ذهنه قد عاد أتم ما يكون يقظة وحيوية، وعلى ذلك يمكن القول بأن أحسن طريقة للاستجمام ليست فى الوقوف عن

العمل، بل فى تنويع العمل، ويبرز لنا هنا السؤال التالى:

هل تُستنفد الطاقة النفسية كما تستنفد الطاقه العقلية والجسمية؟

مما قد يجعلنا نميل إلى الاعتقاد بأن الطاقة النفسية تستفد بمرور الوقت ووفقا لما نواجه من مسائل ومشكلات ـ أن الانسان منا يتحمل الكثير من المشاق ويعالج ما قد يعترضه من مشكلات... غير أنه غالبا ما تأتى اللحظة التى ينفجر فيها ثائراً ساخطا، وقد يكون السبب فى هذا الانفجار تافهاً غير أن التفسير الوحيد لذلك هو أنه قد استنفد طاقته النفسية.

وكثيرا ما نسمع عن إنسان عرف بالشجاعة والقدرة على تحمل المشاق أنه قد انهار عندما سمع نبأً معينا أو وقعت له حادثة أخرى، وما تفسير ذلك إلا أن ما صادفه مؤخراً قد أتى على ما تبقى من طاقته النفسية.

وقد يمكن أن نستشهد فى هذا الصدد ببعض المظاهر التى يأتى بها بعض الحيوان. فنجد أن الحصان مثلا ـ قد يتحمل ما يقوم به من الأعمال الشاقة فترات طويلة ـ غير أنه إذا ما استنفد طاقته النفسية (ربما لقسوة صاحبه أو لإحساسه بالمهانة) ثار فجأة ثورة عارمة يحطم فيها كل ما حوله، وقد يؤدى به ذلك إلى إلحاق الأذى بصاحبه. ولا يمكن أن يكون الحيوان فى هذه الحالة قد استنفد طاقته الجسمية، فإن

ما يستنفده من الجهد والطاقة خلال تهيجه وما يقوم به من (حركات عنيفة غاضبة ورفس وجرى) توضح مدى ما يكمن لديه من طاقة جسمية لم تستنفد بعد.

وكثيرا ما لوحظت مثل هذه الحالات على الأفيال والجمال والكلاب والقطط وكذلك حيوانات السيرك.

وهناك فوارق كبيرة بين استنفاد الطاقة النفسية وبين الإعياء أو الإرهاق الجسمى، ومما لا شك فيه أن كلتا الحالتين تؤثران فى بعضهما البعض، وليس ضروريا أن يكون التأثير المتبادل بينها بنفس الدرجة.

وكثيرا ما يكون الإعياء الجسمى نتيجة لما نلاقى من التعب الحقيقى فى حياتنا اليومية ونتيجة لما يصيب العضلات من إعياء.

ومما لا شك فيه أن تجدد الطاقة النفسية أمر هام جداً وحيوى فى حياتنا؛ إذ أن ذلك يعتبر بمثابة (غسيل للنفس من متاعبها) ويجب علينا أن نحرص على ذلك وأن نسعى إليه بالوسائل المختلفة.

ويمكن أن نقول إن كل ما نشغل به أنفسنا وقت الفراغ يحقق تلك الرغبات الفطرية التى تبقى فى ساعات العمل غير مشبعة بل إلى حد ما مكبوتة، وعلى ذلك فإن الاستثارة الوجدانية المتجددة هى

التى تهيئ للمتعب أنجع علاج طبيعى وأسرعه. ومما لا شك فيه أن ذلك يستلزم إيجابية من جانب كل فرد، فعليه أن يسعى إلى أن يؤدى عملا يأتيه مختاراً خارج دائرة عمله.

صدى الموسيقا فى النفوس

***لماذا ننتشى عند سماع الموسيقا؟**

من المسلم به أن نفوسنا تنتشى عند سماع الموسيقا، وأننا نطرب عند الإنصات للألحان. ولابد أن هناك شيئاً يكمن وراء الألحان والموسيقا تطرب له نفوسنا، فإن حاسة السمع ليست إلا وسيلة لنقل ذبذبات الصوت إلى المراكز الحسية والعصبية حيث تترجم الأنغام والألحان إلى انفعالات وإحساسات، وعندها تهتز الرءوس طربا.

وإذا راقبنا أنفسنا مراقبه دقيقة وجدنا أننا نطرب لألحان دون غيرها، وتهتز لها مشاعرنا فى الوقت الذى لا نتأثر بنفس الدرجة لسماع ألحان أخرى...

ولو أخذنا بمذهب التحليل والتفسير لوجدنا أن الموسيقا والألحان تنقلنا بشكل عام من جو الصمت والسكون إلى جو صوتى مجسم

غير محدد الأبعاد... جو منغم يلون الوقت وينقل الإنسان إلى أجواء تبعث على البهجة. وإذا بنا في رحلة مع الأنغام.... تارة نجد أنفسنا وكأننا ننزلق فوق سطح هادئ ناعم.... وتارة أخرى وكأننا نسير في منحنيات متلاحقة أو نهبط درجا على رنين الأجراس، وتارة أخرى وكأننا نحلق في أجواء من صنع الخيال، وآناً آخر وكأننا نهتف في حماس ونضرب الأرض بأرجلنا... ومن الأنغام ما يدعوك إلى المرح ونسيان الهموم فتستجيب له على الفور، وتطرب له وكأنك مدعو للرقص والاهتزاز، ومنها ما كأنه يشاركك وجدانيا فيما تعيشه من آلام، ومنها ما كأنه يوصلك إلى آمالك وأحلامك، ومنها ما يثير في النفس القوة والحماس، وغالبا ما تستجيب النفس للرنين المنغم، ولكن النفس تلتقط دائما ما يتمشى مع ميولها ورغباتها المختبئة؛ ولذلك فإن تعامل النفس مع الأنغام يتجسد فيما يكمن وراء هذه الأنغام من معان وأبعاد، وليس أدل على ذلك من إقبال الناس على أنغام معينة في الوقت الذي لا تثير فيه نفوس الآخرين.

وفي بعض الأحيان نجد أنفسنا وقد أخذتنا النشوة تجاه أغاني أو ألحان غريبة علينا ـ قد لا نفهم من كلماتها شيئاً ـ وهنا نجد الاستجابة إلى المعاني الإنسانية العامة مثل الفرح والابتهاج، والتوسل والاستعطاف، والتقرب والتودد، والألم والعذاب، وأحيانا الاستصراخ وطلب النجده، وتارة الرضوخ والاستسلام...

وتصل النشوة والطرب إلى ذروتها حتما عند حدوث التكامل بين النغم والكلمات والأداء.

وهكذا تلعب الموسيقا فى حياتنا النفسية دوراً هاما لا يمكن التقليل من شأنه.

البصيرة والذكاء التأملى

قد يحسن بنا فى بدء الحديث عن البصيرة أن نحاول تحديد مفهوم هذه الكلمة التى تختلط فى الأفهام مدلولاتها.

فمن خلاصة التجارب والأبحاث يمكننا أن نقول دون تردد: إن البصيرة تتجسد فى تلك اللحظة التى تنبثق فيها الفكرة مع الطريقة إلى الحل مع وضوح النتيجة دفعة واحدة...

وقد تصبح البصيرة نتيجة حتمية لما يسمى بالذكاء التأملى، الذى يؤدى تلقائيا إلى ومضات البصيرة.

وقد يتوقف حل مشكلة ما على إعادة تنظيم المجال الإدراكى سواء بتكيف الشخص وفقا للموقف، أو تكييف الموقف وفقا للشخص. وقد يبرز حل المشكلة فجأةً أثناء المعالجة بفضل ما يمتاز به المجال الإدراكى من خصائص تصورية ملازمة له.

وقد أطلقت مدرسة الجشطالت gestalt (مدرسة من مدارس علم النفس) على هذا الإدراك المباشر كلمة Insight أى ما يسمى باللغة

العربية بالاستبصار (وهو ما عرفه صاحب الفروق اللغوية ـ أن يتضح له الأمر حتى كأنه يبصره).

من أمثلة الذكاء التأملى:

ويروى عن العالم الرياضى جوس Gauus عندما كان تلميذاً فى المدرسه الابتدائية الحادث الآتى:

طلب المدرس من تلاميذه أن يجمعوا فى ذهنهم سلسلة الأرقام الآتية:

١ ـ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ـ

فوجد جوس النتيجة بسرعة فائقة أدهشت المدرس، فسأله كيف حل المسألة بهذه السرعة، فأجابه بأنه رأى أن الأرقام على الوجه الآتى:

١ + ٨ = ٩

و ٢ + ٧ = ٩

و ٣ + ٦ = ٩

و ٤ + ٥ = ٩

أى أن مجموعة هذه الأرقام يمكن إعادة تنظيمها بحيث تكون أربعة أزواج كل زوج، منها يساوى ـ٩ـ فكانت النتيجة أنه ضرب ٤×٩ وأجاب بالنتيجة. وقد يمكن تفسير ذلك بأنه نوع من الإدراك الكلى الشمولى.

كما ظلت مشكلة انغماس الأجسام فى السوائل وما ينتج عن ذلك من سائل مزاح تلح على عقل أرشميدس وتؤرق باله حتى جاء اليوم الذى دخل فيه حمامه وقفز إلى حوض الاستحمام الممتلئ بالماء، وعند ذلك فاض الماء على جانبى الحوض... فإذا به يخرج عاريا صائحا... وجدتها! وجدتها! وجدتها! وكأنه قد أصابته لوثة من جنون، ثم عكف على كتابة قانون الطفو:

إذا غمر جسم فى سائل فإنه يلقى دفعا من أسفل إلى أعلى وهذا الدفع يساوى وزن السائل المزاح....

ومن أهم التجارب التى أجريت فى هذا المجال، والتى يمكن أن نسوقها للتدليل كنموذج للذكاء التأملى واستنباط الحل. تلك التجارب التى أجراها العالم الألمانى كوهلر Kohler والعالمان الفرنسيان جييوم Guillaume، وميرسون Meyerson الذين رأوا أن محك السلوك الذكى هو ابتداع الحيلة للوصول إلى الغرض، ومن هذه التجارب المحاولات التى نجح فيها القرد الشمبانزى المسمى (سلطان) والتى أشرف عليها

العالم كوهلر Kehler، فقد وضعت لهذا القرد خارج قفصه بعض ثمرات الموز، كما وضعت كذلك بجانبه داخل القفص بعض العصى المختلفة الأطوال والتى يمكن إذا ثبتت من أطرافها ببعضها البعض أن تصنع عصا طويلة واحدة، وقد حاول سلطان أن يجذب ثمرات الموز بإحدى هذه العصى، غير أنه لم يفلح فى بادئ الأمر، وقد كرر المحاولة عدة مرات بالعصى الأخرى... فجأة حاول تثبيت العصا الرفيعة من طرفها بإحدى العصى الغليظة، ونجح فى ذلك بعد محاولات، وبالتالى نجح فى جذب ثمرات الموز، ثم التهمها....

وقد نجح (سلطان) أيضا فى حل مشكلة أخرى حينما أدليت من سقف قفصه مجموعة من ثمار الموز، غير أنه عندما قفز إلى أعلى لم يتمكن من الوصول إليها، ثم كرر المحاولة فلم ينجح، وفجأة اتجه تفكيره إلى استخدام صندوق من أحد الصناديق التى وضعت داخل القفص، واستخدمه كقاعده للقفز، غير أن قفزته لم توصله إلى الهدف.... وفى محاولة أخرى سريعة جاء بصندوق آخر ووضعه فوق الصندوق الأول وقفز قفزة أوصلته إلى هدفه...

وليس الذكاء أمراً مستقلا ومنفصلا عن سائر الوظائف العقلية، فإنه أصدق تعبير للتنظيم التلقائى الذى يشمل الشخص وبيئته. وليس الذكاء نتيجة لارتباطات عرضية بين التصورات والمعانى، بل هو كما قال بينيه Binet فهم وتوجيه وابتكار ونقد.

ولا يمكن فصل الذكاء عن الإدراك، وخاصة الإدراك البصرى فإنهما متضامنان متلازمان؛ ولهذا السبب يحق لنا أن نعتبر الذكاء مع أصحاب مدرسة الجشتالت ضربا من الاستبصار -insight-.

ويزخر تاريخ البشرية بالكثير من هذه اللمحات، غير أن ما نسوقه هنا ليس إلا على سبيل المثال، وليس على سبيل الحصر.

وهذه قصة إسحق نيوتن والتفاحة:

فكم تساقطت الآف الثمار من أشجارها، غير أن ذلك لم يكن فيه ما يلفت انتباه أى إنسان، بعكس ما حدث فى رأس إسحق نيوتن - عندما شاهد إحدى ثمار التفاح تسقط أمامه. . . . فإذا به يستنبط على الفور قانون الجاذبية.

ويجدر بنا مراعاة الفروق الدقيقة والأمور المتداخلة بين كل من الجوانب التى قد يشتمل عمل ما على لمحات منها مجتمعة، وهذه الجوانب هى: البصيرة والذكاء التأملى، والإلهام والإبداع والجلاء البصرى والكشف، وقد يدفعنا البحث إلى الفصل بينها، غير أن هذا الفصل يكون لتيسير التحقيق وسهولة الاهتداء.

الكشف والجلاء النفسى والتجاوب العقلى عن بعد

* الكشف والجلاء النفسى:

لا نزاع أن الناس فى حياتهم اليومية يسيرون على هدى منطقى العقل والعلوم الرياضية والطبيعية، ويجدون أنها صادقة، ويطمئنون

إليها اطمئنان اليقين الذى لا ريب فيه. وقد درج الناس على الثقة فى الإدراك الحسى؛ لأنهم يشاهدون المحسوس عيانا؛ وهم لذلك يودون أن يشاهدوا المعقولات عيانا للتصديق بها وبلوغ اليقين فى شأنها، واليقين العقلى موجود بسبب الإدراك المباشر والأوليات التى نعتمد عليها فى استدلالاتنا واستخراج النتائج اليقينية؛ ولذلك كانت العلوم الرياضية ظاهرة البراهين.

ويُقسم الإمام أبو حامد الغزالى المعارف إلى ثلاثة أنواع: الحسية والعقلية والدينية ـ وكل نوع منها ينبئ عن عالم من الموجودات. والإنسان يخلق فى أصل الفطرة ساذجا لا يعلم شيئاً، ثم يتدرج بالإدراك، فيعرف أولا العالم الحسى عن طريق الحواس كالسمع واللمس والبصر والذوق والشم، ثم يترقى طوراً آخر فيدرك بالعقل عالما آخر من الموجودات خلاف الموجودات الحسية، كالمعارف الضرورية والواجبات والجائزات والمستحيلات. وإدراك المعانى الكلية الزائدة على ما أدركه الحس، وعلى جملة الحقائق العقلية التى هى أمور وراء المحسوسات. وأخيرا يسعى إلى محاولة معرفة عالم الغيب. وقد ذكر هذا فى أحدى رسائله، أن قوما من المتصوفة قالوا:

«إن للقلب عينا كما للجسد، فيرى الظواهر بالعين الظاهرة، ويرى الحقائق بعين العقل»

وقد قال رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم:

«ما من عبد إلا وفى وجهه عينان يبصر بهما أمر الدنيا، وعينان فى قلبه يبصر بهما أمر الآخرة.

فإذا أراد الله بعبد خيرا فتح عينيه اللتين فى قلبه فأبصر بهما ما وعده بالغيب.»

أخرجه الديلمى عن معاذ.

(جمع الجوامع للسيوطى جـ ١ ص ٧٢٣

ويقول الإمام الغزالى إن إدراك الغيبيات ـ برغم عن اختلافه عن المحسوسات والعقليات ـ له طريق آخر خلاف الحواس وخلاف العقل وهو طريق الصوفية، الذى يعتمد على الذوق، وهو طريق يتم بالتجربة الشخصية وهى التى تسمى بالمكاشفة. ويقول فى (المنقذ) إن من المتصوفة من يمكنهم المشاهدات فى يقظتهم يشاهدون الملائكة وأرواح الأنبياء، ويسمعون منهم أصواتا ويقتبسون منهم فوائد، ثم يترقى الحال من مشاهدة الصور والأمثال إلى درجات يضيق عنها نطاق المنطق.

وقد ضرب الغزالى بعض الأمثلة فى كتاب (عجائب القلب) على إمكان اطلاع المرء إذا صفت نفسه على أمر من الغيب، بعضها يدخل فيما يذكره علماء النفس المحدثون باسم الجلاء البصرى والرؤية عن بعد، ويسميها الغزالى إلهاما. . . والملهم هو الذى انكشف له الغيب فى باطن نفسه من جهة الداخل، لا من جهة المحسوسات الخارجة.

* قصة عمر بن الخطاب وسارية الجبل:

يحكى أنه فى العام الثالث والعشرين من الهجرة، قصد سارية بن زئيم الدؤلى (مكان فَسا ودارا بجرد) حتى انتهى إلى عسكرهم فنزل عليهم وحاصرهم ما شاء الله، ثم إنهم استمدوا وتجمعوا وتجمعت إليهم أكراد فارس، فدهم المسلمين أمر عظيم وجمع كثير، وأتاهم الفرس من كل جانب. فرأى عمر فيما يرى النائم فى تلك الليلة معركتهم وعددهم فى ساعة من النهار. فنادى من الغد. . . . الصلاة جامعة، حتى إذا كان فى الساعة التى رأى فيها ما رأى خرج إليهم. وكان ابن زئيم والمسلمون بصحراء إن أقاموا فيها أحيط بهم، وإن استندوا إلى جبل خلفهم لم يؤتوا إلا من وجه واحد فقام (عمر) فقال: يأيها الناس إنى رأيت هذين الجمعين وأخبر بحالهما، وصاح عمر وهو يخطب (يا سارية ابن زئيم الجبلَ الجبلَ) ثم أقبل عليهم وقال ـ إن لله جنوداً، ولعل بعضها أن تبلغهم ـ فسمع سارية ومن معه الصوت فلجئوا إلى الجبل، ثم قاتلوهم من وجه واحد فهزمهم الله وأصاب المسلمون مغانمهم.

وقد يفسر لنا ذلك مدى ما قد يمتاز به بعض الناس من صفات خاصة وأحاسيس مرهفة وقدرة على الكشف (وهم فى ذلك درجات ومراتب) يتضح لهم ما خفى عن سائر البشر من أسرار وخبايا، فَيُقَابَلُوا من الناس إما بالاستنكار والتكذيب وإما بالإيمان والتصديق. وقد يعزو البعض صدق تنبئهم إلى المصادفة البحتة، غير أن هناك كثيراً من التنبؤات لا يمكن إرجاعها إلى الصدفة البحتة.

من مظاهر وعلامات العبقرية

يكثر بين العبقريين من كل طراز جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة، كما يكون لهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ فى الفراسة ونفاذ البصيرة أو النظر على البعد أو الشعور على البعد Telepathy.

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهى بلا ريب صادقة فى حالات، مقاربة فى حالات أخرى، غير أهل فى كل حال للتصديق التام ولا للنبذ التام، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن، وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

فالفراسة وشبيهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية فى حاشية من حواشيها... إذ ما هى العبقرية فى لبابها كائنا ما كان عمل المتصف بها؟

ما هى الحكمة العبقرية؟ وما هو الفن العبقرى؟

ماهو دهاء السياسة فى الدهاة العبقريين؟ من هو الألمعى الذى يظن بك الظن كأن قد رأى وقد سمعا؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى الكشف للخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق عن الألباب. . . فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه ولا انحراف به عن النحو الذى تنحيه.

وقد اشتهر عمر بن الخطاب بفراسته، ونقل عنه أن «من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه» وتروى له فى أمر هذه الفراسة روايات، قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهى أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة، فمن ذلك أنه كان جالسا فمر به رجل جميل، فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية، فكان كذاك.

وأنه أبصر أعرابيا نازلا من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده، قد نظم شعراً لوشاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابى: من أين أقبلت؟ فقال من أعلى الجبل. فسأله: وما صنعت فيه؟ قال: أودعته وديعة لى. قال: وما وديعتك؟ قال بنى لى هلك فدفنته، قال فَأَسْمِعْنا

مرثيتك فيه. فقال: ومايدريك يا أمير المؤمنين؟ فوالله ما تفوهت بذلك، وإنما حدثت به نفسى ثم أنشد أبياتاً ختمها بقوله:

فالحمد لله لاشريك لـه فى حكمه كان ذا وفى قَدَره

قَدَّر موتاً على العباد فما يَقدر خَلق يَزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بلَّ لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابى

التجاوب العقلى عن بعد Telepathy

وهو تعبير يؤدى معنى الاتصال بين عقل وعقل آخر عن بُعد، وبدون الاستعانة بالوسائل المادية والحواس المعروفة، ويتضمن ذلك انتقال الأفكار والخبرات والمشاعر من عقل إلى عقل رغم ما بينهما من مسافة. ويطلق بعض الأساتذة الباحثين على هذه الظاهرة تعبير ـ التجاوب العقلى عن بُعد.

وقد ظهرت جمعيات فى بلاد مختلفة لدراسة هذه الموضوعات وتسجيلها ومناقشتها، ومن بين هذه الجمعيات جمعية الأبحاث الروحية فى بريطانيا (S. P. R.) كما تعرف فى تسميتها الشائعة. وقد جمعت خلال سبعين عاما من عمرها قدراً ضخما من المعلومات المتصلة بهذه الظواهر الخارقة، كما تضم من بين أعضائها جماعة من

الفيزيائيين الموهوبين وعلماء الرياضيات وعلماء النفس إلى جانب مجموعة من المؤمنين المصدقين بالغيبيات.

وإن ما يهمنا أن نركز عليه البحث فى هذا الصدد ينحصر فى الإطارات الآتية:

أ ـ انبثاق فكرة ما فى عقلين متباعدين فى وقت واحد، برغم ما يفصل بينهما من مسافات

ب ـ الحالات التى يبدو فيها الإنسان سواء كان مستيقظا أم نائما وكأنه يتلقى أنباءً صادقة عن أمور تحدث فى نفس الوقت كالإحساس بمشاهدة عزيز غائب منذ مدة طويلة... وإذا به يحضر على التو... أو كموت قريب على مبعدة... أو الأحلام التنبئية... أو الشعور فجأة باقتراب خطر ما.... إلى غير ذلك مما لا يمكن التوصل إليه عن طريق الحواس المعروفة أو استنتاجه من علم سابق.

جـ ـ إحساس الحيوانات بقرب وقوع الزلازل قبل حدوثها.

وأحب أن أشير هنا إلى حالة وردت فى مجلة أعمال جمعية البحث الروحى مقتبسة من كتاب عنوانه (العلم السابق) وصدر فى لندن سنه ١٩٢٨.

«كان مستر برايتن نائما فى يخت راس بالميناء. . . وسمع فى حلمه صوتا يحذره بأن ثمة خطراً يحدق به من سفينة أخرى تكاد تدهمه. فاستيقظ، وصعد إلى ظهر اليخت، ولكنه وجد الهدوء يسود كل شىء، وأن الأمور كانت على سابق حالها. وإن كان الضباب قد انتشر حول المنطقة، فانثنى راجعا ليستأنف النوم، ولكنه رأى نفس الحلم مرة أخرى، فصحا من جديد وصعد ظهر اليخت وقد جعله الحلم نهبا للقلق، وساعد على ذلك انتشار الضباب، فتسلق السارية فى الوقت المناسب حيث استطاع أن يرى فوق مستوى الضباب سفينة أخرى تشرف عليه من أعلى. . . . فصاح محذراً ربان السفينة الأخرى، فحول هذا دفته وتفادى الاصطدام».

وقد لا يمكن الاستدلال على تفسيرات كامنة لمثل هذه الحالات، كما أنه لا يمكن أن يكون الإدراك الحسى أو حدة السمع أحدهما أو كلاهما المتسبب فى مثل هذه الحالات. كما أنه لا يمكن أن تماثل هذه الحالة حالة النائم بالتنويم المغناطيسى ـ وهو نوم يعرف بأن النائم دائما لا يعى شيئاً مما حوله عدا صوت المنوم الذى يكون الاتصال بينهما قائما، ومن ثم فهو يطيعه طاعة ضمنية.

وهناك كثير من القصص التى روتها بعض الكتب الأجنبية، منها:

(أن امرأة كانت تطهو طعاما على النار، وإذا بها تشعر بخوف مفاجئ وينتابها إحساس غريب بأن ابنها الذى ذهب إلى رحلة صيد

فى بعض الغابات قد أصابه مكروه، ولاضطرابها المفاجئ يسقط الإناء من فوق الموقد. وترتجف المرأه ويغمى عليها، وتمر الأيام وهى لا تزال تفكر فى ابنها، وما هى إلا أيام قليلة حتى تتلقى نبأ بأن ابنها يرقد فى المستشفى جريحا إثر مهاجمة نمر له... وهو يتجول فى أرجاء الغابة. ثم يتبين لها أن ذلك قد حدث فى نفس الوقت الذى أحست فيه بالخوف عليه وانقلب منها القدر الذى كانت تطهو فيه الطعام!

ويحكى أن بحاراً ذهب إلى المستشفى للعلاج فى لندن، وبقى فيه عدة ليال، وعندما دعاه الطبيب المعالج للفحص أخذ يقص عليه حلما رآه فى منامه فى الساعات المبكرة من الصباح، إذ رأى أن أخاه قتل فى فرنسا وقد قلق لذلك قلقا شديداً... وتسلم المريض بعد ذلك ببضعة أيام بطاقة بريد من والديه ينبئانه فيها أنهما تلقيا من وزارة الحربية إخطاراً بأن أخاه قد قتل فى نفس ذلك الصباح خلال غارة شنها العدو عند مطلع النهار.

إن هذه الأمور وغيرها تشير إلى خبرة غير مألوفه، وإنها توحى بأن ثمة أمراً يتجاوز المألوف يتدخل فيها ـ وليس هناك من بيان يقوم على قواعد طبيعية أمكن تقديمها لتفسيرها حتى الآن.

أما مشكلة كيفية انتقال الرسائل وانبثاقها على مثل هذه الصور فثمة نظرية جذابة بأن هذه الرسائل تنتقل عن طريق موجات مخية

فيزيائية ؛ لأنه أصبح الآن من الثابت الوطيد أن المخ يبث موجات تتفاوت فى قوتها وشكلها وحجمها. والواقع أن قياس هذه الموجات وتسجيلها قد أصبح أسلوبا مألوفا فى إجراءات التشخيص الطبى المعتادة. ولكن المسافة التى تعبرها هذه الموجات، التى كثيرا ما تعبر الشقة البعيدة بين طرف العالم والطرف الآخر، وقد امتدت فى حالة الجندى البحار من فرنسا إلى مدينة لندن ـ هذه المسافة الشاسعة تستبعد هذا الاحتمال فيما يظهر، وثمة حجج أخرى تناقض هذه النظرية، ولابد من إيجاد تفسير آخر لهذا الانتقال لا يذهب فى المادية مذهب نظرية موجات المخ ـ إلا أن تفسيرا هذا شأنه ما زال فى عالم الغيب المجهول.

ـ ومن قبيل قراءة الفكر ما حكى عن أنس بن مالك قال:

دخلت على عثمان مرة وكنت قد لقيت امرأة فى طريقى، فنظرت إليها شزراً وتأملت محاسنها. . . . فقال عثمان عندما نظر إلىَّ: يدخل علىَّ أحدكم وأثر الزنى ظاهر فى عينيه!! أما علمت أن زنى العين النظر! فقلت: أوحى بعد النبى؟ فقال لا. . . . ولكن بصيرة وبرهان وفراسة صادقة.

وما حكاه بعض الصوفية قال:

«عن أبى سعيد الحراز قال: دخلت المسجد الحرام فرأيت فقيراً عليه بعض الخرق البالية، فقلت فى نفسى، هذا وأشباهه كَلٌّ على

الناس. فنادانى وقال: والله يعلم ما فى أنفسكم فاحذروه، فاستغفرت الله فى سرى. فنادانى وقال: وهو الذى يقبل التوبة عن عباده... ثم غاب عنى ولم أره».

وهذه الظواهر الشائعة فى بعض الناس من الجلاء البصرى والنفسى وقراءة الفكر، دليل على وجود حاسة باطنة فى الإنسان تدرك الشعور والمعانى والأفكار عن بعد بغير واسطة.

والنظرية التى يذهب إليها (الغزالى) هى أن هذه الحاسة موجودة بالفطرة عند جميع الناس كما يوجد عندهم السمع والبصر والذوق، مع أعضائها المناظرة لها وهى الأذن والعين واللسان، ولكن إدراك الحاسة الباطنة يحتاج إلى أمور:

أولها: عدم اشتغال النفس بالحس الظاهر وشهوات البدن، حتى تتفرغ لحسها الباطن.

ومن هنا كان طريق الصوفية هو السبيل إلى التخلص من علائق البدن ـ وفى ذلك يقول (الغزالى) فى (كيمياء السعادة):

«ولا تحسب أن هذا خاص بالأنبياء والأولياء؛ لأن جوهر ابن آدم فى أصل الخلقة موضوع لهذا».

ومجاهدة النفس عند المتصوفة باب كبير ـ يسمونه بالمقامات ـ وليس هنا مجال الخوض فيه.

وعدد قليل من حالات (التجاوب العقلى عن بعد) والتى تقع لبعض الناس هو الذى يمكن قبوله باعتباره صادق السند.

ومن ناحية أخرى إذا كنا نقبل بعض الحالات القليلة على أنها صادقة ثابتة، فليس ببعيد أن نكون قد أغفلنا عاملا من العوامل الحيوية.

وهذا هو السبب فى أنه لابد لنا ـ بل ويتعين علينا ـ أن نجمع عدداً كبيرا من الحالات الصادقة الثابتة لكى نبرهن على وجهة نظر معينة.

وفى الوقت نفسه ليس يكفى عدم إقامتنا البرهان العلمى على أمر من الأمور للدلالة على أنه غير صحيح (فالاعتقاد) قبول حقيقة افتراضية فى غيبة الدليل والبرهان. إن هناك بعض الناس الذين يعتقدون فى التجاوب العقلى عن بعد، والتنبؤ التحذيرى، والوجود الروحى، وإن لم يقتنعوا بعد بأنها أمور ثبتت بالدليل العلمى. هذا فضلا عن أن من حقهم أن يعتقدوا فى هذه الأمور؛ إذ أن اعتقادهم هذا قد يثبت فى يوم من الأيام.

وعلى ذلك فإنه يصبح من المفروض علينا أن نعترف بأن حجة استحالة تصور العقل لأمر من الأمور حجة مرفوضة. والمعنى الذى نستخلصه من ذلك هو أن العقل قد يعجز عن تصور بعض الأمور أو فهمها أو أنها لا تتفق مع ما سبق فى إدراكه من أفكار، ولكن هذا لا

ينفى صدقها أو يثبت خطأها، فالكثير من الاستكشافات العلمية تمت على أيدى أناس لاحظوا فى تجاربهم أشياء وأموراً لم يكن حدوثها منتظراً. هذا فضلا عن أن الكثير من الحقائق العلمية المعروفة فى الوقت الحاضر كانت أموراً مستحيلة ـ فى جيل سابق ـ ولعل الأمر الذى (ما كان مصدقا حدوثه من قبل ليس إلا قصوراً فى ملاحظاتنا السابقة).

*-الإلهام والعبقرية

إن فى العبقرية ومضة إلهية وحيوية وقوة دافعة غير موجودة فى المواهب الأقل، والعبقرى يتجه نحو الهدف دون جهد ظاهر، وهدفه هو الحقيقة كما يراها، والتى سيضطر الآخرون إلى رؤيتها بمرور الوقت... إنه يصل بما له من بعد النظر والفراسة التي هى هبة من الله إلي ما لا يستطيع غير الموهوبين الوصول إليه.

[والعبقرية فى رأى العقاد هى التفرد والسبق والابتكار].

*** أفلاطون والعبقرية**

أفرد أفلاطون كتابا خاصا من كتبه العديدة يقدم فيه رأيه فى الشعر والنقد الأدبى، حيث قدم نظريته القائلة: بأن (العبقرية إلهام) وقد لخص أفلاطون رأيه فى جملة واضحة معبرة وذلك عندما يقول «إن

الشاعر كائن أثيرى مقدس ذو جناحين لا يمكن أن يبتكر قبل أن يلهم فيفقد صوابه وعقله، وما دام الإنسان يحتفظ بعقله فإنه لا يستطيع أن ينظم الشعر».

وقد جلس فولتير مرة فى إحدى مقصورات المسرح يشهد تمثيل رواية من رواياته، فإذا به يصيح متعجبا: «أحقا أنا الذى كتبت ذلك!».

وهذه (جورج اليوت) التى لم تكن تميل بها فلسفتها إلى الاعتقاد فى قوى نفسية غير طبيعية ـ تصرح أنه قد خيل إليها أثناء كتابتها (Adam Bede) أن عقلا آخر قد استحوذ على قلمها وسيره.

ويزعم (جوته) أنه كتب أحسن رواية له وهو فى غيبوبة حالة يشبهها هو بحالة النائم الماشى.

ويخبرنا البرفوسور (هوسمان) عن طريقته التى كتب بها قصائده فيقول (أنا لا أظن إلا أن إنتاج الشعر ليس إلا عملية فاعلة Active قدر ما هى قابلة Passive غير اختيارية، ويشرح كيف هبط عليه الإلهام فيقول: بينما كنت أسير وأنا لا أفكر فى شىء خاص، (فلا يلبث أن ينبثق فى ذهنى انبثاقا فجائيا مقرونا بشىء من الانفعال لا أعرف مأتاه ـ شىء من الشعر ـ وقد يعقب ذلك فترة ركود، وربما تفجر الينبوع مرة ثانية ـ وأقول تفجر لأن ما يصل إلى المخ يبدو وكأنه صادر من الأعماق.

ولهذا لن نتردد فى أن نقبل النتيجة الرئيسية التى وصل إليها التحليل النفسى، وهى أن خير القصائد وخير الحكايات وخير الصور إنما هو إنتاج العقل الباطن.

وفى الحقيقة أن هناك تشابها كبيرا بين أوهام الرجل المجنون وبين الخيالات الهائجة التى يتكشف عنها عقل الفنان. غير أنه ليس معنى هذا أن كل عبقرية جنون.

ويقول سيرل برت ـ أستاذ علم النفس بجامعة لندن ـ فى كتابه (كيف يعمل العقل): إن البحوث التى أجريت لقياس درجة التأثر والقوى العقلية عند الشعراء والمصورين والفنانين ـ قد أدت إلى نتيجة واحدة: ذلك أن الفنان المبدع ـ من حيث ذكاؤه العام ومن حيث موهبته الخاصة، رجل مزود بهبات فطرية نادرة. غير أن الفرق فرق فى الدرجة وليس فى النوع. فالمقدرة على خلق العمل الفنى، كالمقدرة على تذوقه ـ لا تتوقف على ملكة إضافية منعزلة عن مجرى حياتنا اليومية، وهى فى درجاتها العليا ليست إلا إحدى ثمرات الحياة العقلية الطبيعية.

وإن الدراسات التى قام بها علماء التحليل النفسى على الأحلام وأحلام اليقظة قد ألقت جانبا كبيراً من الضوء على عمل العقل عند الفنان، فالعمل الإنشائى الذى يقوم به الفنان يكون فى الغالب ـ مثل حلم اليقظة ـ نتيجة عملية لا شعورية، وما يبدو للعيان مجرد لمحة

من الإلهام أو ميلا إنشائيا فريداً، إذا أنت فحصته بدا لك فى طبيعته المعقدة منبعثا من ميول عدة، تعمل عملها فى الأعماق تحت سطح الشعور، هذه الميول تستمر فى عملها اللاشعورى ما بقيت مكبوتة، وتبقى آثارها بسيطة وغير مفهومة ما بقيت مصادرها خفية، ولكن متى تحقق الناس أن العقل ـ حتى فى مشكلاته العادية ـ يقوم بسلاسل من النشاط اللاشعورى، تكشف لهم خفايا الإنتاج الفنى كل التكشف؟

ولكن بحوث علم النفس التى تقصر نفسها على الواقع لا تترك مجالا للشك فى أن الفنان الحقيقى ذا الروح الحساسة والخيال الشعرى ـ تمر به هزة روحية ـ لاصلة لها بما تقتضيه مطالب المعيشة المادية الصاخبة، وقد يعد الفنان هذه الهزة شيئا جديراً فى ذاته أن يحصل، أو قد يعدها رسولا يحمل شعاعا من النور من عالم القيم النهائية ـ ومن مصدر ذى شأن كبير فى أعماق الحياة والوجود. ولكن مهما يحاول الفنان شرح أصل تلك الهزة فإنها هى التى يريد أن يعبر عنها فى صورته أو قصيدته

* علاقة الذاكرة بالإلهام

ويقول الشاعر الإنجليزى المعاصر (ستيفن سبندر):

«إنه ليس هناك من عمل فنى إلا وله ماض فى نفس صاحبه،

وهذا الماضى هو تجربة قَديمة ـ مر بها الشخص فتركت آثاراً عميقة فى نفسه، وهذه الآثار قد تختفى من السطح، ولكن هذا لا يعنى أنها انتهت.

وعلى ذلك فإنه يمكننا أن نعتبر الذاكرة جذر العبقرية المبدعة، فهى تمكن الشاعر من أن يصل لحظة الإدراك المباشر التى تسمى (الإلهام) باللحظات الماضية التى حملت إليه انطباعات مماثلة، وهذا الوصل للانطباع الراهن بالانطباعات الماضية يمكن الشاعر فى اللحظة من أن يخلق تأليفا عبر الزمن قوامه أنغام إن هى إلا انطباعات متماثلة تلقاها الشاعر فى أوقات متباينة ووصل بينها فى تشبيه يحتويها جميعا معاصرة.

وفى رأى الغزالى أن الإلهام ثمرة استعداد من العبد وإشراق من أنوار الرب وموضع الإلهام هو القلب.

وكما يقول فى الإحياء: (تابع الغزالى)

إن المعلومات تحصل لبعض القلوب بإلهام إلهى على سبيل المبادأة والمكاشفة، ولبعضهم بتعلم واكتساب.

وقد يكون الإلهام سريع الحصول، وقد يكون بطىء الحدوث، وفى هذا تتباين منازل العلماء والحكماء والأولياء والأنبياء، وأعلى مرتبة هى رتبة العباقرة والملهمين الذين تنكشف لهم بعض الحقائق أو أكثرها فى أسرع وقت من غير اكتساب أو تكلف.

ويفرق الغزالى فى الرسالة اللدنية بين الوحى والإلهام: فالوحى تصريح الأمر الغيبى، والإلهام تعريضه، والعلم الحاصل عن الوحى يسمى علما نبويا، والذى يحصل عن الإلهام يسمى علما لدنيا، والعلم اللدنى هو الذى لا واسطة فى حصوله بين النفس وبين البارى. والإلهام تنبيه النفس الكلية للنفس الجزئية الإنسانية على قدر صفائها وقبولها وقوة استعدادها. ويتولد الإلهام من إفاضة العقل الكلى.

والوحى والإلهام والأحلام الصادقة والرؤى التى تحصل فى اليقظة ـ كل أولئك نتيجة حاسة دينية مفطورة فى الإنسان، يتلقى أو يرى بها عجائب الغيب وما يخفى عن الناس، ويتفاوت الناس فى مقدار ما يحسون به باختلاف طبائعهم واستعداداتهم ومقدار صفاء نفوسهم وقلوبهم وجلائها عن تجربة حية يعيشون فيها (تلك الحالات التى يطلعون فيها على أسرار خافية إما بالذوق وإما بعين القلب).

*حدود العقل فى مذهب الغزالى

ويعترف (الغزالى) بعد أن قضى نحواً من عشر سنوات مواظباً على العزلة والخلوة، ومستعينا فيها بالذوق وبالعلم والبرهان تارة، وبالقبول الإيمانى تارة ـ أن هناك بعض الحقائق التى لا يدركها (العقلاء ببضاعة العقل)

ومعنى ذلك فى جملة القول أن العقل الذى يعلم حدوده ويدرك عجزه هو الذى يقر بوجود طور وراءه، كما تبين له من قبل أنه هو نفسه طور وراء الحس والتمييز، وهذا شيء يقوم البرهان العقلى على إمكانه بل ضرورته.

فمن المعروف بداهة أن مراتب الإدراك متفاوتة، وهى تبدأ بالإحساسات من لمس وبصر وسمع وذوق وشم، ثم يترقى الإنسان إلى مرتبة التمييز، فيدرك أموراً زائدة عن عالم المحسوسات، وبعد ذلك تأتى مرتبة العقل، فيدرك الواجبات والجائزات والمستحيلات، والطور الذى يلى العقل هو طور البصيرة التى يدرك بها الغيب، وهو طور مستقل عن العقل.

والغزالى يسلم بالذوق والفيض والإلهام، ويرى أن طهارة النفس سبيل لكشف الحجب والوصول إلى معلومات وحقائق لا يمكن الوصول إليها عن طريق الحس والعقل. ويختلط التصوف عند الغزالى بالأخلاق كل الاختلاط، ويعد كتاب (الإحياء) بحق مؤلفا صوفيا وأخلاقيا فى آن واحد، ولا نزاع فى أن الغزالى على رأس الأخلاقيين فى الإسلام، وقد فصَّل القول فى الأخلاق الدينية وأقامها على دعائم سيكلوجية.

ومن الأمور الشائعة تشبيه الإدراك البديهى بالنور، فديكارت يسميه (بالضياء الروحى) أو (بالنور الفطرى)

* الإبداع

يقال إن هناك شخصًا مبدعًا أى أنه شخص مبتكر، ولكن ليس هناك تحقيق لإبداع مطلق، وإن أكثر الناس قدرة على استرجاع الصور، والإدراك الكلى لها أقدرهم على التصور والتخيل، وقد يمتاز بعض المصورين بالقدرة على استرجاع الصور، وبالتالى بالقدرة على بنائها وابتكار النماذج، وبذلك فإن استرجاع الصور أحد العمد الأساسية التى تقوم عليها عملية التصور، وبالتالى القدرة على التخيل.

وإن القدرة على تحسين المنتجات أو تطويرها لا تعتبر من الإبداع فى شىء، حيث إن عمليه الإبداع هنا تحتم الخلق والابتكار. وقد نجد أن الصور الأولى للمخترعات الحديثة لا تعدو أن تكون مكتشفات بسيطة فى بدء أمرها تناولتها الأيدى بالتحسين والتطوير حتى أصبحت فى صورتها العظيمة التى تشد انتباهنا وتستولى على مشاعرنا.

ومن هنا يثبت لدينا عظمة الأفكار الأولى، وإن بدت مهوشة بسيطة، ولكنها تحمل بين طياتها وفى مدلولها عظمة كبرى للعقل البشرى تعبر عن الألمعية وتوقد الذهن البشرى فى أزهى ومضاته. ولو أخذنا الصاروخ مثلا لوجدنا أنه استخدم فى بادئ الأمر كقنبلة من القنابل العادية المدمرة. ثم طورها الألمان فى الحرب العالمية الثانية وأخذوا يطلقونها قنبلة طائرة بلا طيار إلى الأراضى الإنجليزية.

ولقد كانت هذه القنبلة مثار الدهشة والعجب من جميع شعوب الأرض. وبعد الحرب العالمية الثانية استخدمت فكرة الالمان، ثم امتدت إليها يد الخبراء بالتطوير والتحسين حتى أصبحت الصاروخ الذى حمل الناس إلى القمر. من هنا يمكننا أن ندرك خطوات الكشف والابتكار والتطوير والتحسين، ولكن الناظر إلى هذه الأشياء دون جذورها لا يملك إلا أن يراها إبداعاً، وهى فى الحقيقه ليست إلا تطويرا أو تحسينا لأفكار سابقة.

غير أن هناك أعمالا خارقة للعادة لابد أن نوفيها حقها، فإن كل الجهود التى بذلها العلماء والمخترعون فى تطوير ما بين أيدينا من الأجهزة العلمية والطبية وأجهزة علم الفلك وأجهزة الإعلام (الخيالة والإذاعة المرئية) تعتبر جهودا فائقة إلى حد كبير.

* التقدير والتوقع

التقدير عملية عقلية واعية تتم فى المركز العصبى الرئيسى - إما على وجه السرعة الخاطفة، وإما بشكل متئد وفقا لنوع الأمر الذى يواجهه الفرد والفرصة الزمنية المتاحة له. ويعتمد التقدير أساسا على عدة أمور: منها ما هو عقلى، ومنها ما هو حسى ونفسى، كما أن الخبرات السابقة الناتجة عن التجريب وإدراك العلاقات والربط بينها،

تعتبر ركائز هامة لعمليات التقدير. ويعتبر القرار الذى يستقر عليه العقل وتطمئن إليه النفس نتاجا لكافة التفاعلات والتأملات.

وتتجلى عمليات التقدير فى أبسط الأمور وأعقدها، وفى ملاحظة بسيطة يمكننا أن ندرك أن عملية التقدير تدخل فى كافة العمليات فى حياتنا اليومية... فكما أن الإنسان يقدر كمية الملح اللازمة لطعامه، فإنه كذلك يقدر المسافة بينه وبين السيارة القادمة عند عبور الطريق، فإما أن يتوقف عن السير، وإما أن يعبر بسرعة معينة حتى لا تدهمه العربة... وكما أن لاعب الكرة يرسل الكرة إلى زميله بزاوية خاصة فإنه فى نفس الوقت يقدر ما يمكن أن يقوم به زميله هذا من محاولة لإصابة الهدف... ونرى السباح الذى يسبح المسافة البعيدة فى مياه البحر يحتفظ بجزء من طاقته تمكنه من العودة سالما إلى الشاطئ مرة أخرى... كذلك نرى القائد العسكرى يبنى خطته العسكرية على ضوء تقديره لقواته من ناحية ولإمكانات العدو من ناحية أخرى حتى لا يخوض معركة خاسرة.... إلى غير ذلك من المواقف فى مختلف الاتجاهات والأوضاع، ويعتبر التوقع نتيجة تلقائية لما عساه قد يحدث بناءً على عملية التقدير.

ويعتقد بعض علماء النفس والباحثين فى علم وظائف الأعضاء أن الإنسان مزود بحاسة إضافية وهى حاسة التوازن والتقدير (Balance)

علاوة على الحواس الخمس المعروفة، وإذا سلمنا بهذا فإن مظاهر وقدرات هذه الحاسة تختلف من شخص لآخر: فمن الناس من يمتاز بالقدرة الفائقة على تقدير الأخطار... ومنهم من هو قادر على تقدير المسافات أو الوقت أو الجهد... إلى غير ذلك.

وتحدد لنا عملية التقدير مدى احتياجاتنا إلى التصور والتخيل فى جميع العمليات العقلية، الإنشائية منها والابتكارية. فالمربى فى حاجة إلى التصور والتخيل عند وضع البرامج والمناهج وما يمكن أن تستوعبه عقول الناشئة منها.... وكذلك القائد فى حاجة إلى تصور وتخيل أجواء المعركة وميدانها... كما أن المهندس ومخطط المدن كل منهما فى حاجة إلى التصور والتخيل (وهما عمليتان ضروريتان لإتمام عملية التقدير الصحيحة). وعندما تنجح تقديراتنا تجاه مشكلة ما فقد نجد الحل المناسب لها، وعندما يتجنبنا التوفيق ويقدر لنا الفشل تجاه مشكلة أخرى فغالبا ما يكون هناك قصور ما فى تقديراتنا حيال هذه المشكلة.

وقد تبدو لنا بعض مظاهر التقدير لدى الحيوان، فنرى الأم من الخيل ترفع حافرها عن وليدها حتى لا تصيبه بسوء، كما أن البقرة تدفع صغيرها بمقدمة رأسها، ولكن فى رفق وحذر، وتلف الأنثى من الفيلة خرطومها حول صغيرها بطريقة خاصة لتنقله من مكان خطر إلى مكان آمن ـ ولكن دون أن تلحق به أى نوع من الأذى.

ولا يمكن أن نجرد مثل هذه الأنواع من السلوك من الإدراك العقلى؛ فلا شك أنها صادرة عن العقل والعاطفة معاً.

إحساس الحيوانات بالظواهر الطبيعية

ومن الأمور التى تثير العجب وتبعث على التساؤل، تلك الظاهرة العجيبة لدى الحيوانات وشعورها بالزلازل قبل وقوعها.

وليس منا من لم يسمع بذلك الهياج الذى ينتاب الحيوانات داخل أقفاصها فى حدائق الحيوانات... عندما تزأر الأسود وتصيح الأفيال، وتعوى الذئاب، وتصرخ القردة، ويعلو خوار الثيران... حتى الطاووس ذلك الطائر الهادئ يرتفع صوته الخائف.... وكأنها جميعا قد استشعرت الزلزال قبل وقوعه، وليس هناك تبرير منطقى يقبله العقل حتى الآن لهذه الظاهرة....

فإما أن تكون أجسام هذه الحيوانات مزودة بحساسية خاصة فائقة (قد تكون مغناطيسية أو كهربية) تساعدها على الشعور بأقل الذبذبات، مما يساعدها على الإحساس والاتصال بأية تحركات تحدث فى باطن الأرض.. وبالتالى تبدو لنا وكأنها قد أحست بالزلزال قبل حدوثه.

وإما أن يكون أمر هذه الحيوانات وإحساسها بالزلازل خارج نطاق ما يدركه العقل البشرى. وقد تكشف لنا الأبحاث مستقبلا ما قد خفى عنا من غموض فى هذا الصدد.

وهناك حقيقة تشير إلى ما زودت به الطبيعة بعض الحيوانات بقدرات خاصة

(فمن المعروف أن الوطواط لديه القدرة على الطيران فى سرعة فائقة داخل الكهوف دون الاصطدام بجدرانها... حيث يبعث من جسمه بموجات ترتد إليه فور اصطدامها بجدران الكهف، فيتحاشى على الفور الاصطدام بتلك الجدران).

لماذا تتزعج الكائنات الحية من ظاهرة كسوف الشمس؟

حدث أن اجتمع فى قرية (يورجا ميش) فى منطقة الأورال بالاتحاد السوفيتى عشرات من العلماء جاءوا من مختلف بلاد العالم، وكان هدفهم هو دراسة الكسوف الكلى للشمس.

وفى هذه البلدة الصغيرة أقيمت المراصد، واستعدت أحدث الأجهزة لتسجيل هذه الظاهرة. كما توقع العلماء ظهور الكسوف فى اللحظة المحددة واستمر ٣٥ ثانية أمكن خلالها الحصول على عشرات من الصور الهامة.

ولكن علماء (الأحياء ـ البيولوجى) كانوا يبحثون عن شىء فريد: هو العلاقه بين ظواهر الشمس وسلوك الكائنات الحية على الأرض: وبدأت سلسلة من الظواهر المثيرة: اندفعت قطعان الماشية بجنون نحو حظائرها. . . . وارتفعت صيحات الدجاج. فيما امتلأت السماء بأسراب مذعورة من الطيور تنطلق صارخة!! وفى الحقول المجاورة كانت الأنظار تراقب سلوك الحمام، والأرانب، والنحل وغيرها. . .

لقد كانت لحظة فريدة لجميع العلماء، مع أنها لم تستغرق سوى ٣٥ ثانية. . . !

لماذا تنزعج الكائنات الحية من ظاهرة كسوف الشمس؟ هنا تأتى إجابات مختلفة: بعض العلماء يعتقد أن هذه الكائنات تحمل بداخلها أجهزه إنذار مذهلة، تمكنها من الشعور بالخطر قبل حدوثه.

فالشمس هى المصدر الحقيقى للحياة فوق كوكبنا، كل شىء يرتبط (بمزاجها) وأحوالها. . . فالمناخ وحركة المواصلات اللاسلكية وتنقلات الجراد، بل والزلازل، وثورات البراكين ـ كل هذا تحكمه حركتها.

والكائنات الحية تستشعر الخطر بسرعة، وتسعى هاربة قبل وقوعه!

ومنذ عدة سنوات وقعت كارثة فى إحدى قرى إيطاليا راح ضحيتها الآلاف من الناس. . . . انهار جبل هائل فوق القرية، واندفع الماء

إلى ارتفاع ٢٥٠ متراً ليغرق كل شيء!

وقبل هذه اللحظة بدقائق. كان هناك مشهد غريب لم يدرك مغزاه سكان القرية!...

لقد اندفعت الأرانب البرية تعدو في الطرقات، بعيداً عن الجبل، ومن الحظائر خرجت صيحات الأبقار، وتصاعد أنين الكلاب، وأصيب طائر الكناريا في قفصه بذعر غريب. انتهي به إلي الانتحار. فقد حشر العصفور رأسه بين قضبان قفصه ليختنق حتي الموت!....

وبعد لحظات وقعت الكارثة ليحكي الذين أُنقِذُوا هذه التصرفات الغريبة للكائنات الحية.

والعلم يدرس هذه الأجهزة الحية الدقيقة، ويسعي لتقليدها. ففي أعماق الطيور والحيوانات ومختلف الكائنات الحية تكمن أخطر أسرار الحياة....

وتراث الشعوب يحمل ومضة بدائية لهذه الحقيقة. فالخوف من صراخ (البوم) واعتباره نذيراً بالخطر عادة قديمة من الممكن ربطها بقدرة بعض الكائنات علي توقع الخطر!

والجديد اليوم هو الدراسة العلمية لهذه الظواهر. ومحاولة الاستفادة منها عن طريق صنع (أ. هزة) تملك بعض هذه القدرات تمكن الإنسان من تحقيق المزيد من التحكم في الطبيعة من حوله.

والأجهزة الحديثه ثورة جديده؛ لأنها تتجه لصنع أدوات تحل مكان الأجهزة العصبية الدقيقة عند الطيور والحيوانات، بل تحل مكان عقل الإنسان نفسه.

وستظل أسرار الكائن الحى أعظم مصدر لإثراء وتطوير الثورة العلمية والتكنولوجية. ومن هذه الحقيقة ندرك الاهتمام العلمى المتزايد بدراسة أجهزة التوجيه والتحذير والتحكم عند أصغر الكائنات الحية وأكبرها!.